فصلية تعنى بالفن التشكيلي

Magazine

تشكيل

TASHKEEL

ISSUE 3

2011

تصدر عن دائرة الفنون - وزارة الثقافة - جمهورية العراق

السنة الثالثة

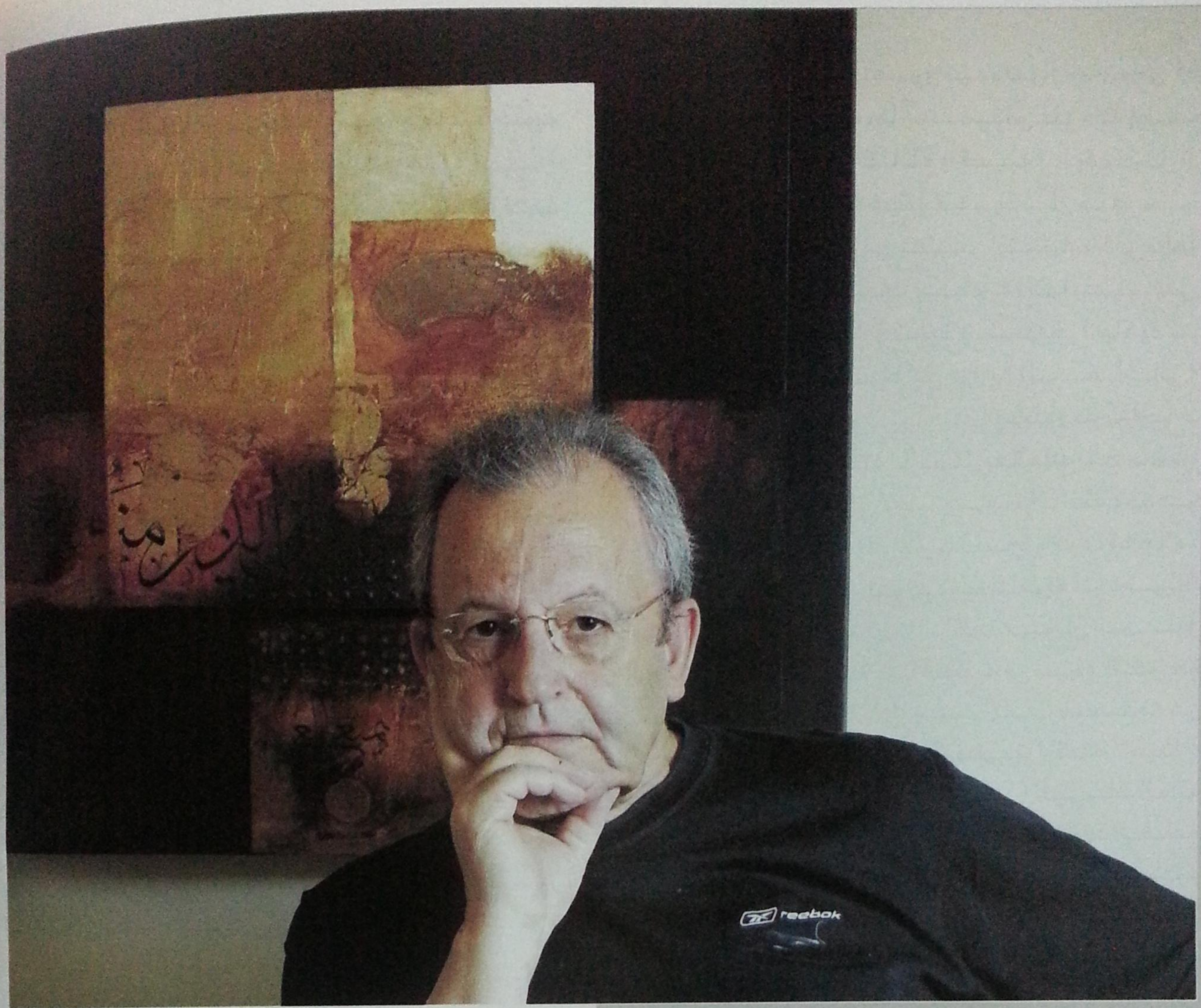

جدل البيئة والفن
رافع الناصري : عشر سنوات ..ثلاثة أمكنة

مي مظفر

"عشر سنوات .. ثلاثة أمكنة" كان عنوان معرض شخصي أقامه الفنان رافع الناصري في متحف البحرين الوطني في المنامة (السابع عشر من تشرين الأول ١٩٩٩). اشتمل على أعمال نفذها الفنان على مدى عشر سنوات (من ١٩٨٩ إلى ١٩٩٩). متنقلا بين ثلاث عواصم عربية: بغداد وعمّان والمنامة. وعلى هامش المعرض تحدث الناصري في محاضرة ألقاها في قاعة المحاضرات في المتحف عن المصادر البصرية للفنان عامة ومصادره خاصة، عرض فيها على المشاهدين عددًا من الشرائح الملونة التي التقطتها كاميرته من مشاهد طبيعية، وآثار بيئية أثارت انتباهه لما تضمنته من قيم جمالية تنسجم مع رؤيته الفنية وتمكنه من توظيفها في تكويناته التجريدية. في الوقت ذاته أراد أن يضع المشاهد أمام حقيقة أساسية مفادها أن الفنان لا يعمل من فراغ، وأن الشكل المجرد الذي تعكسه الصورة نابع في جوهره من الواقع.

صلة الناصري بالطبيعة والبيئة الخارجية صلة وثيقة. فقد كان لنشأته المبكرة في بادية العراق الشمالية كل الأثر في انصرافه إلى استلهام مشاهد الطبيعة أينما حل وارتحل، وهو ماضٍ على توظيف مفرداتها وانتقاء ما يتوافق منها مع صياغته الفنية. منذ أن تبنى التجريد لغة للتعبير الفني، كانت البيئة الطبيعية أبدا شاخصة في ذاكرته ببادیتها المترامية وآفاقها اللامتناهية، وكثيرا ما تمثلت في لوحاته بأشكالها الأرضية الوعرة وآفاقها المفتوحة ومحيطها الأثيري. غير أنها مع اتساع اهتمامه بالبيئة الطبيعية الخارجية والحضرية في المدينة، ومع تطور إحساسه بالمكان وقيمه الجمالية والذهنية، بدأت لوحاته تشي ببعض الملامح الدالة على الأثر الإنساني، الظاهر للعيان منها

والمطمس، سواء أكان متمثلا ببعده الزماني أو بأمكنته المتمثلة بالأطلال والخرائب والآثار الأخرى (الأرقام والحروف والإشارات والكتابات وغيرها). ومن خلال الشكل الذي يتغاير ويتنوع تبعًا لجغرافية الأرض، تشكلت لغة التعبير لديه لتعكس تأثير المكان على جغرافية روحه وتضاريسها.

لقد كشفت مجموعة الأعمال التي اشتمل عليها معرضه شبه الاستعادي هذا عن حقيقة أن التنقل بين الأمكنة كان له علاقة وثيقة بتغير حالاته وأمزجته الأمر الذي تجلى بوضوح في مجموعة الأعمال التي اشتمل عليها المعرض، سواء المرسومة بمادة الأكريليك على القماش أو الورق أو تلك المنفذة بالحفر والطباعة .(etching)

كان بإمكان المشاهد أن يتابع انتقال التعبير الفني لديه من أقصى حالات الصفاء والحوار الهادئ، إلى أقصى الاحتدام، ومن شفافية الضوء وصفائه إلى عتمته واضطرابه. بل كشفت بعض الأعمال التي أنجزت خلال هذه السنوات عن إحساس عميق بالوحدة والفجيعة متمثلا بطغيان اللون الأسود الذي كاد يفيض على خوله يخفي على المشاهد المتبصر، ناهيك عما يتخلل تكويناته من علامات الرفض والإشارات الدالة على الاحتجاج .تظل لوحة الناصري متمسكة بقيمها الجمالية العالية التي تكشف عن طموح الفنان إلى الوصول إلى أكبر قدر ممكن من الدقة في الأداء، يقينًا منه أن معنى الجمال أو بعض معانيه، يتأتى من كمال العناصر وتكاملها بقدر ما يتأتى من تنافرها وتناغمها. فجمال الأشياء يعني امتلاكها القدرة على استثارة النفس والارتفاع بها إلى ذرى التعاطف مع الوجود برمته. وهو ما يدفع الناصري إلى عدم التخلي عن الأصول الكلاسيكية للرسم. فمهما بدا على لوحته من انغمار في مفاهيم الحداثة، تظل لوحته قائمة في أساسها على قواعد الرسم كالتوازن وتوزيع الكتل واستخدام مؤثرات الظل والضوء. فضلا عما يضفيه اللون من شحنة تعبيرية استعارية، هي لغة الشعر المرئية، والحامل الأمين لجذوة الروح، لتوهجها وانكسارها، لغضبها وهدأتها.

من هذا الفهم للوجود ينطلق الناصري في بحثه البصري عن العرضي والمهمل في البيئة المحيطة به. فالمفردات التي تثير اهتمام الناصري هي أشياء صغيرة ملقاة على الطريق تستوقفه فجأة وتستفز مخيلته. إنها بعض ما خلّف الإنسان من أثر يلتقطه الفنان من دون غيره ليجعل منه شاهدا على أن الجمال يمكن أن يكون موجودا في كل ركن وفي كل شيء، وأن مواصفاته لا تكمن في توافره على عناصر أو معايير محددة. هذه الأشياء جميلة لأنها تتوافر على جانب حيوي، وحيويتها تتأتى من قدرتها على التفاعل مع المحيط ومع العين المتبصرة.

لوحة رافع الناصري إذًا لا تصور ما ترى في المكان، كما أنها ليست محض خيال، بل هي مزيج من الاثنين وامتداد لهما. ولعل هذا التفاعل الجدلي مع البيئة والاندماج فيها هو بعض ما اكتسبه من دراسته الفنية في الصين. فاهتمام الفن الصيني بالطبيعة ينبع من يقين أن الفنان جزء من الطبيعة المحيطة به، وأن ما يصوره من محيطه ما هو إلا انعكاس لتواصله معها، وما الشكل المصوّر إلا تعبير عن ذات الفنان من خلال الموضوع.

لعل هذا ما حاول أن يبينه في محاضرته التي ألقاها بمناسبة معرضه تحت عنوان "المصادر البصرية للفنان". فقد استعرض الناصري بعضًا من اللقطات التي سجلتها عدسة الكاميرا في تجواله في مدن العالم شرقًا وغربًا، ليظهر من خلالها ماهية الأشياء التي تثير اهتمامه دون غيرها، والظواهر التي يرى أنها محض عمل فني من أداء

الطبيعة وتفاعلاتها، أو ربما من تفاعل الناس معها. من هذا المنطلق جزّأ الفنان شرائحـــه إلى ثلاث مجموعات هي الأثر والضوء واللون .يلاحـــظ من شـــرائح الصور التي عرضها الفنان في محاضرته تلك أنها معنية بالتقـــاط أشـــياء صغيرة وهامشية، إن لم تكن تالفة أحيانًا، أشياء خلفتها الطبيعة على جدار ملطّخ أو خشب متآكل أو معدن صدئ أو ثمر يابـــس. فهو مثلا يعرض أجزاء من تمثال أو جانب من مبـــنى تعرض لعوامل الطبـــيعة: كتابـــات عفوية على الجداران أو شـــروخ تناثرت على الجدران في الأزقـــة والحواري. في أحيان كثيرة نجد أن عدســـته التقـــطت هذا الشـــكل أو ذاك لكونه يمثل صورة فنية متكاملة من حيث بـــناء الموضوع ومؤثرات الظل والضوء، وتراه أحـــــيانا يصرخ بجذل: "هذه لوحة كاملة" أو: "هذا عمل لشاكر حسن آل سعيد". هذا ما جعل هذه الصور في نهاية الأمر تبـدو وكأنها لوحـات فنية تجريدية غير ذي صلة بالواقـــــع مع أنها أثر من الآثار التي تركها الإنســـان أو خلفتها الطبـــيعة على هذا الجزء من المدينة أو ذاك. إنها شواهد حية، قد تكون جزئية وهامشـية لا يلتفت إليها الناس، و ربما تثير فيهم النفور والغضب .حين انتقـل الناصري إلى قـضية الضوء واللون، عرض بـــعض اللقـطات التي يكشـــف من خلالها مدى تأثير مساقـــط الضوء على الأشـــكال في الطبـــيعة، وإلى أي حـــد تتغير

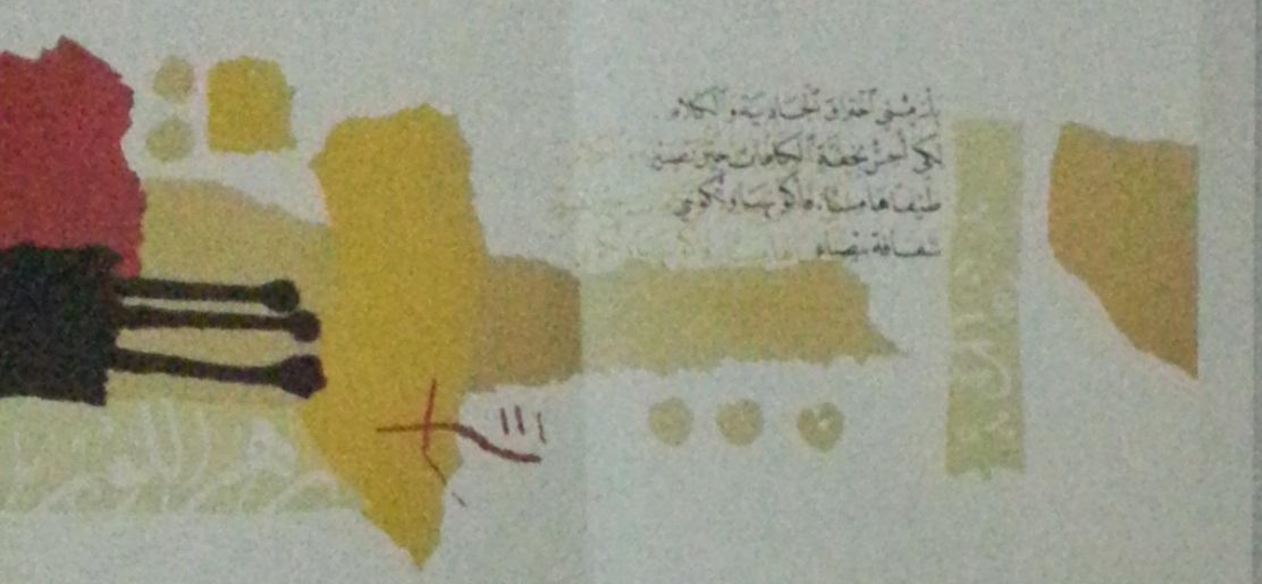

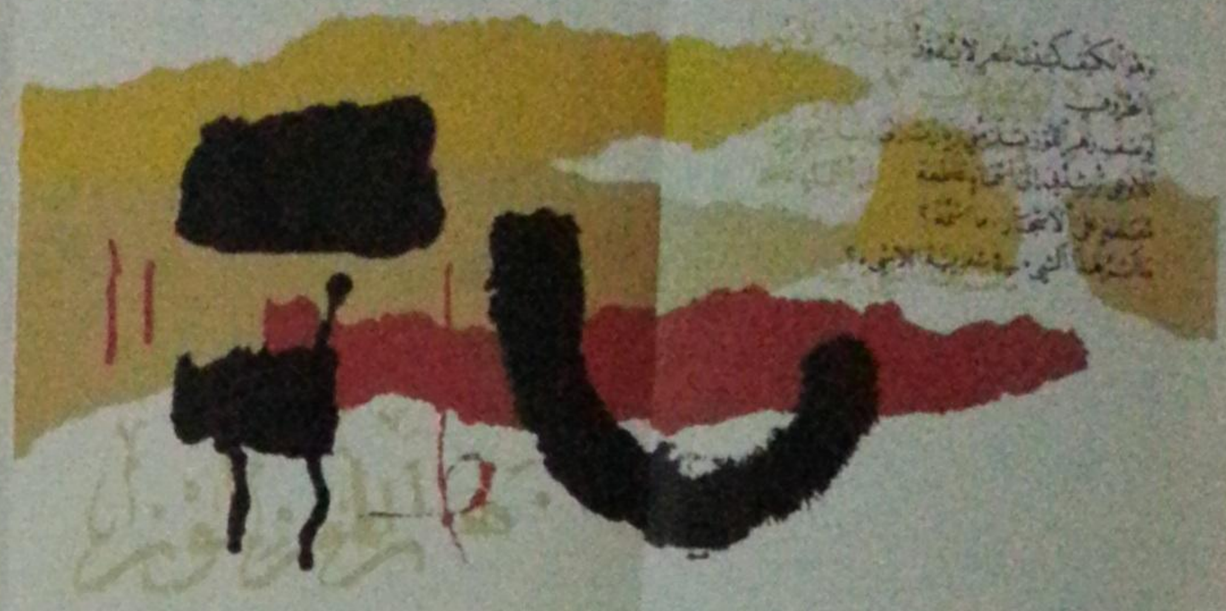

معالمها تبعًا لحدته وخفوته، لشفافيته أو عتمته. فضلا عن ذلك فإن حركة الظل والضوء، كما رصدها الناصري في وجودها الطبيعي هذا، تبين للمشاهد براعة الطبيعة في وضع بصماتها الفنية على المادة التي تلامسها. أما اللون فنراه يتجلى بدرجاته المختلفة الساحرة من خلال عدسة الفنان وما تلتقطه عيناه من أشكال تكونت نتيجة ما خلّفته البيئة الطبيعة من أثر، أو ما أضافه الإنسان من شواهد .حين يقدم الناصري على التقاط الصورة من خلال الكاميرا، فإنه لا يكتفي بالتركيز على الشكل، وإنما يؤلف من خلال العدسة، ويوازن بين العناصر المحيطة به قبل توثيق الصورة. وعلى هذا الأساس، فمن الممكن القول إن التصوير الفوتغرافي لدى رافع الناصري ممارسة إبداعية مكملة، لكونه يشكل جانبًا حيويًا من نشاطه الفني، إن لم يكن امتدادًا عضويا له .لقد أراد الناصري في محاضرته أن يخلص من خلال هذا التواشج ما بين عمله الفني وعمله الفوتوغرافي، إلى حقيقة أساسية، ذلك أن لوحته تستلهم موضوعاتها وأشكالها من صلب الطبيعة. إنها ضرب من المحاكاة للأشكال الظاهرة التي يراها والخفية التي توحي بها، ولكنها محاكاة للمفهوم ولمنطق السيرورة في الحياة. فاللوحة لديه حيز بيني يعكس تفاعله معها ويحمل أثره عليها كما تترك الطبيعة بصماتها على الأشياء.